باب الانتقاد

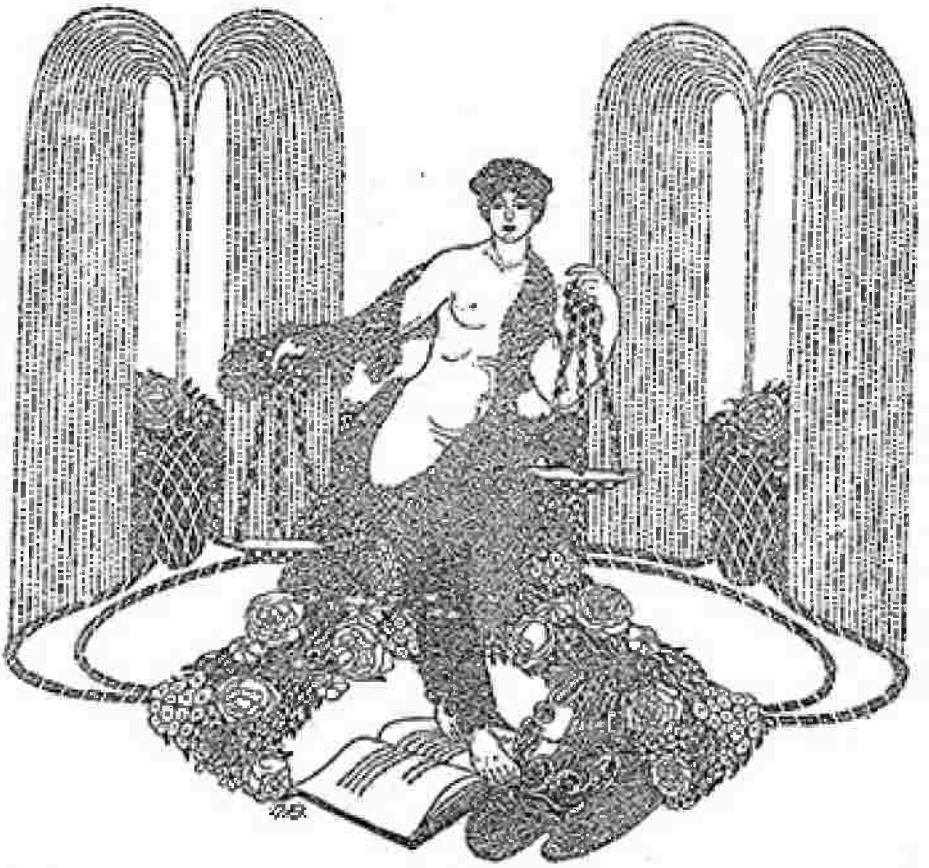

فكرة بطيئة

(* في النظرة السريعة *)

« احسن ما يبلغ النجاح به الطبع
وعند التكلف الزال . »

حسن ان ينظر اللبيب في المقالات وغيرها نظر الناقد الممحص ، والفاحص المنقب ، وجميل ان يبدي رأيه فيها ، ونقده عليها ، ولكن اجمل من هذا ، واحسن من ذاك ، ان يتريث في النقد ، ويتلبث في النشر ، ولا يجلُ مرآة فكره عَلَى الناظرين الا بعد تجويد الصقل وتجريد العقل ، نعم ، وكلام المرء ، كما قيل ، قطعة من عقله ، ونسخة من نفسه ، والعجلة ام الندامة ، والسرعة توجب الصرعة ، وفي الاسترسال ، عثرات لا تُقال .

اهدى الي بعض الكرام — العدد السابع من المجلة البديعة الغراء (الفنون) الصادرة في نيويورك ، فما زلت اسرح البصر فيها ، وأمتع العقل والنظر من طيباتها ، حتى وقفت عَلَى نبذة منها عنوانها (نظرة سريعة في مقالة الريحاني) اطرى كاتبها في طليعتها عَلَى تلك المجلة بما تستحقه ، واعطى الشيء ما هو حقه ، ثم اقتضب الكلام الى ذكر مقالة الريحاني مع صديقه الاستاذ ناصر الدين زاعماً ان الريحاني قد اطرى صديقه اطراء كبيراً تجاوز الحد فيه .

وقد قات هذا الكاتب ان الريحاني لعله لم يقصد شخصاً بعينه وانما هو على سبيل الرواية والتمثيل والغرض والتخيل كعادته في كثير من كتاباته

ثم هب انه عنى انساناً معيناً ، ولكن ماذا عليه اذا ابدى معتقده فيه وما يتراءى له منه وانما الاطراء الذميم هو ان يُنعت الشخص بما ليس فيه وما لا يعتقده القائل به ، والا فكيف نسي كاتب (النظرة) نفسه في اطراء (الفنون) بما يصاقب صفحتين وهل لنا ان نقول انه افرط وتجاوز الحد ، لم نقول انه وصف وانصف ، وقال وما مال واعطى الشيء حقه ، وبلغ به حقيقته ، ولكن صاحب (النظرة السريعة) قد ادركه النسيان ، وما اكثر ما ينسى الانسان ، فينسى في وسط نظرته ما صنع في اولها

ثم استدرك على الريحاني خطبته التي اوردها عن الاستاذ في المسجد . ويلوح ان الكاتب لتسرعه في النظر لم يعرف المغزى والغاية من هاتيك الخطبة الناصعة ، ولم يعلم ان المراد بها الاشارة الى سوء السياسة في البلاد العربية ، ووخيم العاقبة عليها وعلى حكومتها تلك السياسة التي على حد ما قاله حكيم المعرة

يسوسون الامور بغير عقل فيحمد رأيهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن دنياً رياستها خساسه

وكان حتماً على ناصح غيور ، وعارف محنك ، كالريحاني او كصديقه الاستاذ تنبيه قومهم من الغفلة التي هم على شفا جرف المهاوي المهلكة بها ، والمعني بتلك الفقر كلها هذا الغرض السامي ، وقد جيء به على اسلوب

بديع ، ورموز شفافه ، وانشاء جميل ولكنه (ولا أسف) لم يرق ذلك نصاحب النظرة ، بيد انه لم يكتف باستهجان خطبة الاستاذ فقط حتى ضم اليها خطبة قس بن ساعدة الايادي — قس وما ادراك ما قس الخطيب العربي ، والبحر اللاهوتي ، والانسان الملكوتي ، واضع اول حجر من الخطابة بين آبائنا العرب الاقدمين ، ومضرب المثل في الفصاحة عند الغابرين والحاضرين ، وكأن الكاتب بمشاحته لقس اراد ان يقيس لنا مقدار وزنه من العربية ومعيار قسطه من الادب ، فيا للبضيمة ويا للظليمة

لو بغير المآء حلقي شرق كنت كالغصان بالمآء اعتصاري

الى قس وامثاله نرجع في التماس اساليب الفصاحة والبراعة ، وتراكيب الانشآء والبلاغة فاذا لطمنا تلك اللطمة السوداء فالى من المرجع ، وعلى من المعول ؟

يا هذا ان قس بن ساعده وامرء القيس والنابغة الذبياني وسحبان وائل واحزابهم من جذوم العربية ، واعراقها الواشجة في اصول الثرى واعماق الارض — كل هؤلاء — موضع حجة لا موضع نقد وملاحاة ، ولكني لا ادري ولا اخال اني ادري — بزعم ذلك الكاتب ان كل ما في الخطبتين كلمات مصفوفة . واسجاع ركيكة . وفقر باردة الخ

— لا يا صاحب النظرة . ولكن الكلام السامي مآء تتنزل به سماء العقول . وافكار الكبار فتحتل منه اودية الاذهان بقدرها . وكل من الخطبتين قد اخذت حظها الفائق من البلاغة والتانة ، واصابة الغرض والقوة

ولكن تأخذ الافهام منها على قدر القرائح والعلوم

بيد اني لا ارتاح للاكتفاء بمجرد الدعوى دون الاشارة الى البينة . فنحن نراجع الناقد — سائلين — هل ان الركاكة والبرودة جاءتا من قبل اللفظ او المعنى او منهما معاً — اما الالفاظ فقد نظرنا كل واحدة مما اشتملت عليه الخطبتان — نعم نظرناها بالباصرة المجردة ثم بالنظارتين المكبرة والمصغرة فلم نجد فيهما ولا لفظة واحدة خارجة عن حد الاعتدال لا مرذولة سافلة ، ولا وحشية نافرة ، هذا من حيث مفردات الالفاظ

اما من حيث الصوغ والتركيب — فليس في شيء من عقودهما — ايجاز مخل ، ولا اطناب ممل ، ولا تقديم ولا تأخير موهم ،

بل كل تلك الجمل والفقر جارية بمجراها الطبيعي ، منساقة بسوقها الاختياري ، فان قوله مثلاً . ويل امرآء الكلام ، من منطق الايام ... وقوله . اليوم ديوان واجلال ، وغداً سجن وأغلال ، ... وكذلك قول قس . من عاش مات ، ومن مات فات ... كل هذه الفقرات لا يمكن تبديلها باحسن منها صوغاً ، وابدع تركيباً ، واجمل تنسيقاً ، بل هي هكذا ، وليست الا كذا ، فاين البرودة يا هذا والركاكة ، هذا بعض ما نقوله عن اللفظ والصوغ .

واما المعاني المقصودة فهي ظاهرة جلية لا ستار عليها ولا غبار ، كما انها بمكان من الفصاحة لمطابقتها لمقتضى الحال والمحيط الذي وقف به كل من الخطيبين فان خطبة المسجد كانت في امة لم تحسن حكومتها تدبيراً ،

فساءت عاقبةً ومصيراً ، فسدت وافسدت اخلاق شعبها ، حتى امكنت الاغيار منها ، ونفثت فيهم روح التعصب المذميم ، والتباغض الوخيم ، وهم اخوان في الوطن واللسان والجلد — بل و (عَلَى الحقيقة) وفي الدين ، مهما اختلفت وتباينت مظاهره واسماؤه ، وتنازع السلطة الروحية روساؤه

فاراد خطيب المسجد ايقاظ الامة من ذلك السبات العميق ، وما في نفوس المسيطرين من المقاصد السيئة التي قضت عَلَى الوطن بالامتلاك بل الهلاك ·

اما قس فوقف في امة جاهلية ، لا يعرف سوادها شيئاً ولا يؤمن بشيء ، قد ركبت متن شهواتها ، وتناهى بها الشقاء الى قتل ابنائها ووأد بناتها ، فأراد ان يشرب في نفوسهم وينفث في افكارهم ، روح الاعتقاد بالديمومة والجزاء ، كي يزعهم ذلك عن التغالي في الجهل والشهوات وقساوة القلوب التي هي كالحجارة او اشد

فاي الخطيبين او الخطبتين — اهل ان يوجه اليها تلك الكلمات القاسية ، والمؤاخذة الشديدة ، ام هل مراد الناقد بانه لماذا — لا يذكر كل خطيب · كل شيء · في كل موقف · فان آخر ما كان عند صاحب تلك (النظرة السريعة) مراجعة الاستاذ بقوله · اين الكلام يا استاذنا فيما يُسمى الفضيلة ··· ويقتلع الرذيلة من نفوس بعض الشيوخ والمعمرين الذين شابوا وانحنت ضلوعهم عَلَى جراثيم التعصب المذهبي ··· الى آخر ما افاض فيه من تهويل امر التعصب الذي نوافقه عَلَى جميع ما قال فيه

فاكثر . بيدَ اننا لا نخصه بطائفة دون اخرى ، ولا يقوم دون آخرين ، بعد ما دخلنا في نوادي التبشير وسمعنا هنالك ما سمعنا ورأينا ثمة ما رأينا ، مما لا حاجة لنا الى ذكره ، ولا نحن بصدده

ولكن الذي نريده بالبيـــان — ان أليس تكليف الخطيب في موقفه الخاص ان ينحي عَلَى التعصب — مما يتجر بالاخير الى تكليفه بالمحال الذي لا يقتدر عليه حتى الاله القدير عَلَى كل شيء الذي خلق السموات والارض في ستة ايام .

أليس يعلم الناقد وكل أحد انَّ ذلك الشعب البائس قد استحكمت كانتا ام بلاياه)ولكن لو ألزمنا الخطيب الاخلاقي بالصيحة عليهما لقال الاخر لماذا كانتا ام بلاياه) ولكن لو ألزمنا الخطيب بالصيحة عليهما لقال الاخر لماذا لم يتعرض للصيحة عَلَى الكذب وقد ذاع وفشى وقال الثاني لم لا يتعرض للخيانة وقد سرت وعمت . وقال الثالث لماذا لم يعرج عَلَى الانغماس في الشهوات وقد صرخت من اهـل الارض سكان السموات ، وهلمَّ جراً. وحينئذٍ أفلا نكون قد كلفنا الخطيب ان يأتي بكل شيء في كل كلام وبكل موقف .

اما الصرخة عَلَى التعصب ، والدعوة الى التساهل — فاكبر من قام فيهما - فيما نعلم هو ذلك الخطيب الريحاني بل هو في مقدمة الداعين والساعين الى رفض التعصب والتحلي بحلية التساهل قولاً وعملاً ، وقلباً وقالباً .

وشاهدي عَلَى ذلك بعد نفس اخلاقه لمن عاش معه وعاشره ولو قليلاً

— نفس كتابه (الريحانيات) فان من راجعه يجد فيه من ذلك ما لا يجده في غيره ومثله صاحبه في كتاب (المراجعات الريحانية)

وحيث ان عقلاء المسلمين وغيرهم عَلَى علمٍ من سلامة ضمير الريحاني وبراءة ساحته من السوء والغرض — فلا يغضبهم بل ولا يسوءهم ابداً — لو فاته ضبط كلمة من قرآنهم الكريم ولا يوجب ذلك بوجهٍ ما — ان يجعلوه دريئة لسهام انتقاداتهم الخفيفة — فضلاً عن الحادة — ولا سيما مع احتمال ان ذلك من هفوات المطبعة بل هو الاغلب عَلَى انه شيء طفيف لا يعبأ به

ولكن من ينظر في تلك (النظرة السريعة) يتجلى له تحامل كاتبها الذي خرج فيه عن خطة الاعتدال في النقد . ولا سيما في امثال قوله (نحن الى اعلان الحقيقة احوج منا الى التدليس والمخادعة) فان كل من عرف الريحاني يعلم انه طاهر الذيل من هذه اللوثة . وانه اشد المحاربين للخداع والتدليس . ولكن الكاتب (اصلحه الله) كأنه ما كتب لاعلان حقيقة ما وانما كتب ليُعلم انه كتب . ونحن لولا تلك الكلمات القاسية لكنا نلتمس له العذر . ونقول ان عنوان نظرته بالسريعة مما يقضي بغفلته عن الحقيقة . ولكن اي عذر له في سرعة النشر والمبادرة الى اذاعة كل ما يخطر عَلَى الذهن من الرأي الفطير ، والنظر الخداج . فان ذلك من ضعف الحصافة . وخفة الحصاة . كيف والمراقبون والمحاسبون اليوم بالمرصاد وكما تُنقد تُنقد . وكما تزرع تحصد وكما تدين تُدان

هذا وقد فاتنا ان نذكر فيما سبق — ان النقد ان كان من جهة بعض التسجيع في الخطبتين · فمن الجلي لدى ارباب الصناعة ان التسجيع اذا جاء من غير تكلف ومشقة — كان مما يزيد حسن الكلام ويضاعف بلاغته ولولا هذا سقط كلام اكثر البلغاء عن درجة الصفر في البلاغة · واذا شئت حقيقة ذلك فانظر الى رسائل بديع الزمان والخوارزمي ومقامات الحريري ومن قبلهم وبعدهم وهنالك تعرف صوب الصواب وسمت الحقيقة

وما دفعني الى ابداء فكرتي هذه الا تمحيص الوهم ، ومناصرة الواقع ونفس الامر ، والله على ما نقول شهيد

محمد الحسين
آل كاشف الغطاء النجفي

(الفنون) — اتانا هذا الرد في زمن عطلة الفنون فلم نتمكن من نشره في حينه · على اننا آثرنا الان ألاّ نحرم القراء من فوائده ، ولا سيما ان كاتبه من العلماء الاعلام المشهورين في العراق ومصر وسوريا · وهو يرد فيه على مقالة للخوري ايليا حاماتي ظهرت في الجزء السابع من سنة الفنون الاولى عنوانها « نظرة سريعة في مقالة الريحاني — في الجزء الخامس من الفنون — »·)

كلمة في الشعر والشعراء

***

تناولت العدد الاول من « الفنون » لسنتها الثانية فتصفحت « رؤيا » جبران بعد مشاهدة الملاك الساقط فرأيت ملاكاً صاعداً في سماء الخيال يمطر الحقيقة لابناء الضلال . ولم اكد ان انتهي من الفقرة الاولى عند قوله « وسرت نحو البحر قائلاً في نفسي البحر لا ينام . وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام » حتى شعرت بهزة اعجاب في نفسي وقلت — حقاً ان الكلام الصادر من القلب يستقر في القلب ، والكلام الصادر عن اللسان قد لا يتجاوز الاذان ويطرح في زاوية النسيان

وانتقلت من الرؤيا الى اليقظة فطالعت الاثينية الحسناء ، فبائع الجرائد فالحب الظافر وفي انتقاء جمال موضوعها وحسن فائدتها ما ينبه الاذهان ويأخذ بمجامع القلوب . واتيت اخيراً الى البحث الادبي في الشعر والشعراء لمخائيل يوسف نعيمه فتصفحته وتمنيت تحقيق امنيته بنزع تلك القيود ليكون مجال حرية الابداع اوسع وفائدة الشعر اعم

على اني ما لبثت ان رأيت ان لكل شيء نظاماً منه ما يتغير ومنه ما لا يتغير وكل ما كان من اوضاع العقل البشري قابل التبديل والتحوير طبقاً لمقتضى الزمان والمكان ، فقواعد الشعر العربي قابلة التغيير وذلك بان تتألف لجنة من الشعراء تضع نظاماً يوافق روح هذا العصر ولا يصعب معه على الشاعر التعبير عن افكاره مهما تكن من علم او فلسفة او حقيقة او خيال .

او بالاقتصار عَلَى الاربعة الاوزان المعروفة بالكامل والوافر والبسيط والطويل وترك القافية جانباً ، والا فلا يحقق ذلك غير الزمان اي بكثرة امثال جبران خليل جبران وأليف وازدياد عدد الناسجين عَلَى منوالها — وفي قصيدة الاول « يا نفس » خير مثال لمن يرغب اظهار مكنونات قلبه نظماً دون ان يقاسي تعباً كبيراً بالقافية التي طالما ضاع الجوهر بسببها

والصعوبة التي يقاسيها الشاعر في ابتكار المعاني وتصوير الافكار السامية في كلام موزون مقفى لا يدركها الا كل شاعر بكل معنى الكلمة

وليس كل من نظم يُعد شاعراً ، فالمجيدون من الشعراء قليلون — لي صديق يجيد قرض الشعر قابلته بعد فراق طويل فألفيته يقل النظم عَلَى ولوعه به فخاطبته في ذلك فاعطاني قصيدة كان قد نقلها عن الروسية نظماً ونثراً فقرأتها منظومة ومنثورة وعرفت الفرق بين النظم المقيد والنثر وما اضاع من لباب القصيده بسبب القافية في الاول وما ظهر وانجلى في الثاني

وختام القول ان افضل ما يساعد عَلَى تحقيق هذه الامنية بقاء هذا الموضوع مطروحاً للبحث لكي تزال من سبيله العقبات . وما اجدر الفنون ان تبقي صدرها مفتوحاً لنقدات الاحرار اذ فيها يرى العاقل ما لا يراه في غيرها ولا بدع في ذلك فان كتبتها ومحرريها من خيرة زعماء الافكار

فحبذا اليوم الذي تفك فيه القيود فيتغير البالي من عاداتنا ويتطور شعرنا العربي فنجد ثمة فيه ما لم يك بالموجود

مصر رشوان عيسى